مشاهير المتقدمين والمتاخرين

ملك شاعر تعيس

المعتمد بن عباد ملك الاندلس

(وخصمه ابن تاشفين باني مراكش وامير المغرب)

في هذه الترجمة تاريخ ثلاث دول بين الاندلس والمغرب يتضمن تفصيل حالتها السياسية في اواخر القرن الرابع للهجرة وما كان من الاختباط بين العرب والمغاربة والافرنج حين ضعف ملوك الاندلس

في كل جزء شرقي وغربي رأينا في عام « الجامعة » الجديد ان نوسع باب « المشاهير » توسيعاً تكمل به الفائدة لان تراجم مشاهير الارض عبارة عن تاريخ الارض نفسها . ولذلك عزمنا على ترجمة اثنين من المشاهير في كل جزء : واحد من « **مشاهير الشرق** » وواحد من « **مشاهير الغرب** » ففي تراجم مشاهير الشرق نقف على (**الادواء والامراض التي فتكت بالشرق وعلى جوانب القوة وجوانب الضعف فيه ليكون ذلك عبرة لابنائه**) وفي تراجم مشاهير الغرب نقف على (**الاصول السياسية والعلمية والادبية والفلسفية التي رفعت الغرب الى مقامه الحالي بعد ان كان دون الشرق بدرجات**) وبذلك يكون (باب المشاهير) في الجامعة عبارة عن تاريخ لذيذ مفيد يشمل (**الماضي والحاضر والمستقبل**) معاً

حوادث المغرب الاخيرة وقد اخترنا في هذا الجزء ترجمة المعتمد بن عباد ملك الاندلس لعلاقة هذه الترجمة بحوادث المغرب التي حدثت في الايام الاخيرة وما فيها من عبرة السياسة وفكاهة الادب وبيان كيفية قيام الدول القديمة في الشرق . وبالله من عبرة التاريخ . فان رجلاً واحداً طاغياً جاهلاً يدعى « ابا حماره » (وبعض الكتاب الاوربيين يقول انهُ رجل وهمي لا وجود لهُ) قدر منذ مدة على حصر سلطان مراكش في فاس وكاد يسقطه عن عرشه مع ان الجالس على هذا العرش كان في الايام الغابرة صاحب

السلطان علي افريقيا كلها وكان يمدّ يده من المغرب (مراكش) فيخلع ملوك العرب في الاندلس ويوقع بملوك الافرنج الطامعين في املاكه الاندلسية .

***

اصل اسرة المعتمد لم تكن اسرة المعتمد متصلة بالملك منذ بدء امرها فان جدّها من العريش وكان يُدعى نعيمًا . فسافر الى الاندلس واقام بقرب تومين من اقليم طشانه من ارض اشبيلية هو وابن لهُ يُدعى عطافًا . وامتدّ لعطاف هذا عمود النسب الى الظافر محمد بن اسمعيل القاضي فهو اول من نبغ منهم في تلك البلاد حتى ولي قضاء اشبيلية . وكان يحيى بن علي بن حمود الحسني المنعوت بالمستعلي ملك (قرطبة) في ذلك الزمان . وكانت الفتن بين حكام الاندلس قائمة قاعدة . فسار المستعلي ملك قرطبة لاخضاع اشبيلية وكان مذموم السيرة . فلما حصر اشبيلية اتفق اهلها على تولية القاضي محمد بن اسمعيل الذي تقدم ذكره وهجموا على ملك قرطبة فقتلوه وهو سكران . وقد روى ابو محمد ابن حزم الظاهري في كتاب « نقط العروس » رواية غريبة بشأن هذا القاضي الذي ارتقى الى منصة الملك وهي تدلُّ على ذمته وامانته اذا كانت صحيحة . ولكن غرابتها تمنع من تصديقها . وتفصيل ذلك ان الخلافة في الاندلس كانت في اسرة الامويين . وقد ذكرنا في كتاب « ابن رشد وفلسفته » ان الحاجب المنصور وثب على الفتى هشام بن الحكم الخليفة الاندلسي واغتصب السلطنة منهُ . فبعد انقضاء عشرين عامًا على موت هشام هذا ظهر رجل يُقال له « خلف الحصري » وادّعى انهُ هشام وانه كان مختبئًا من الخوف على نفسه . فلما سمع بذلك القاضي محمد بن اسماعيل الذي وَلّي اشبيلية ارسل واحضر الرجل من مسجد بقلعة رياح فبايعه الناس وخُطب له على جميع منابر الاندلس . قال ابن خلكان الذي نعتمد عليه في بعض هذه الترجمة « وأقام المدّعي أنه هشام نيفًا وعشرين سنة والقاضي محمد بن اسمعيل في رتبة الوزير بين يديه والأمر اليه الى ان توفي المدعو هشامًا فاستبدّ القاضي محمد بالأمر بعده » نقول ولعلّ هذه القصة لم تخرج عن كونها « أُخلوقة » كما قال محمد بن حزم في كتاب نقط العروس .

وكانت وفاة القاضي صاحب اشبيلية في سنة ٤٣٣ للهجرة . فخلفه ولده المعتضد بالله . وكان للمعتضد بالله ولدان وهما عمر وعباد . ثم افضى الأمر الى عباد فسمي بفخر الدولة ثم بالمعتضد . وكان جوادًا شديدًا جميل الوجه مكبًا على الملاهي تزوج كثيرات من النساء وخلط في اجناسهنّ فرزق منهنّ عشرين ذكرًا وعشرين انثى . ومن شعره

شربنا وجفن الليل يغسل كحله بماء صباح والنسيم رقيق
معتقة كالتبر اما بخارها فضخم واما جسمها فدقيق

ثم توفي بعلة الذبحة في سنة ٤٦١ هـ وخلفه ابنه المعتمد على الله ابو القاسم محمد صاحب الترجمة .

***

المعتمد بن عباد ولما ولي المعتمد الحكم وجد نفسه في نعيم مقيم . قال ابن خلكان في ترجمة يوسف بن تاشفين يصف اشبيلية قاعدة ملكه « كانت من اجمل المدن منظراً وموضعها على نهر عظيم مستبحر تجري فيه السفن بالبضائع جالبة من بلاد المغرب وحاملة اليه . في غربيه رستاق عظيم مسيرة عشرين فرسخاً يشتمل على آلاف (كذا) من الضياع كلها تين وعنب وزيتون . وهذا الموضع هو المسمى شرق اشبيلية . وتمير بلاد المغرب كلها من هذه الاصناف . وفي جانب المدينة قصور المعتمد وابيه المعتضد في غاية الحسن والبهاء وفيها انواع ما يحتاج اليه من المطعوم والمشروب والملبوس والمفروش » فانصرف ابن عباد الى التمتع بتلك الخيرات . وقد قال عنه ابو الحسن علي بن القطاع السعدي في كتابه لمح الملح « انه كان اندى ملوك الاندلس راحةً وارحبهم ساحةً ولذلك كانت حضرته ملتقى الرحال وموسم الشعراء ومألف الفضلاء » نقول ولكن حفظ بلاد الاندلس كان يقتضي يومئذٍ اموراً غير التمتع بالملاذ والطرب لسماع الشعر . فان ملوك الافرنج كانوا قد وحدوا كلمتهم بازاء تفرق كلمة ملوك الاندلس اي حكام اقاليمها واشتغالهم باخضاع بعضهم بعضاً وصمموا على اخراج العرب من البلاد الاندلسية . ولذلك لما وصل الملك الفونس السادس ملك كاستيل الى طليطلة واخذها في سنة ٤٧٨ بعد حصار شديد صاح الشاعر الطليطلي عبدالله بن فرج بن غرنون ينذر قومه :

حثوا رواحلكم يا أهلَ اندلسٍ فما المقامُ بها الاَّ من الغلطِ
السلك ينثر من اطرافه وأرى سلك الجزيرة منثوراً من الوَسطِ
من جاور الشرَّ لم يا من عواقبه كيف الحياة مع الحيّات في سفطِ

ولقد صدق الشاعر فان ملوك الافرنج لم يكونوا يقصدون يومئذٍ باخذهم طليطلة اخضاع ملوك الاندلس لان هؤلاء كانوا يؤدون الجزية لهم اجتنابًا للنزاع والقتال ولانقضاء ذلك الزمن الذي كانت فيه الاندلس سلطنة عظيمة يؤدي ملوك الافرنج الجزية لها . وانما كان غرضهم استرداد البلاد من العرب . وهذا هو السبب في رفض ملك الافرنج بعد

اخذه طليطلة الجزية من المعتمد بن عباد اكبر ملوك الاندلس . فانه ارسل اليه يطلب منه ان يتنزل عن الحصون التي بيده ويكون له السهل فقط . فضرب المعتمد الرسول وقتل من كان معه . فلما سمع بذلك ملك الافرنج اخذ يتأهب لمنازلته

اما مشائخ الاندلس وعلماؤها فانهم لما رأوا هذا الخطر اجتمعوا وتشاوروا . ثم اتفقوا على استدعاء يوسف بن تاشفين من افريقيا لمساعدتهم على عدوهم مع ما في عبوره من الخطر . وكان يوسف بن تاشفين سلطان المغرب يومئذٍ وهو زعيم الدولة التي كانت تسمى « الملثمين » او المرابطين وهي من البربر . ولذلك قال المعتمد بن عباد حين رؤيته نفسه بين نارين « الفرنج والملثمون ضدان وان دُهينا من مداخلة الاضداد لنا فاهون الامرين امر الملثمين . ولئن يرعى اولادنا جمالهم احبُّ الينا من ان يرعوا خنازير الافرنج »

***

دولة الملثمين وقبل تفصيل الحوادث التالية يحسن بنا ان نذكر شيئاً عن نشأة هذه الدولة القوية التي كان يوسف بن تاشفين رئيسها .

روى ابن الاثير في الجزء العاشر من تاريخه الكامل ابتداء دولة « الملثمين » فقال : قيل كان سبب تلثمهم ان طائفة من لمتونة خرجوا للغزو فخالفهم عدوٌ لهم الى بيوتهم ولم يكن بها الاَّ المشائخ والصبيان والنساء . فلما تحقق المشائخ انه العدو قادم عليهم امروا النساء ان يلبسن ثياب الرجال ويتلثمن حتى لا يُعرفن ويتقلدن السلاح . ففعلن ذلك . فلما اشرف العدو ظنهنَّ رجالاً فقال : هؤلاء عند حرمهم يقاتلون عنهنَّ فقتال الموت والرأي ان نسوق النعم ونمضي فان تبعونا قاتلناهم . وبينما هم يجمعون الانعام من المراعي اذ قد أقبل رجال الحيِّ فهجم عليهم النساء من جانب والرجال من جانب فقتلوا منهم كثيرين . وقد قُتل من النساء اكثر منهم . ومن ذلك الوقت جعلوا اللثام سنة يلازمونه فلا يُعرف الشيخ من الشاب . نقول ولعلَّ هواء الصحراء ونسفه الرمال على الوجوه مع شدة الحر هي التي جعلتهم يتخذون اللثام سنة . وقد قال الشاعر في هذا اللثام متزلفاً اليهم

قومٌ لهم درك العلا في حمير ... وان انتموا صنهاجة فهمُ هُمُ
لما حووا احراز كل فضيلةٍ ... غلب الحياء عليهم فتلثموا

فمن ذلك يظهر انهم كانوا ينسبون الى حمير . وكانوا عدة قبائل اشهرها لمتونه وجداله ولمطه . قال ابن الاثير . وكان اول مسيرهم من اليمن ايام ابي بكر الصديق رضي الله عنه فسيرهم الى الشام وانتقلوا الى مصر ودخلوا المغرب مع موسى ابن نصير وتوجهوا مع

طارق (فاتح الاندلس) الى طنجه . ثم انهم احبوا الانفراد فدخلوا الصحراء واستوطنوها لهذه الغاية . ففي سنة ٤٤٨ هـ توجه رجل منهم اسمه جوهر من قبيلة « جدالة » الى افريقيا طالباً للحج فمرّ بفقيه بالقيروان لعله ابو عمران الفاسي وعنده جماعة يتفقهون فاعجبه حالهم . ولما قفل راجعاً من الحج قصد الفقيه وقال له « ما عندنا في الصحراء من هذا شيء غير الشهادتين والصلاة في بعض الخاصة فابعث معي من يعلمهم شرائع الاسلام . فارسل معه رجلاً اسمه عبدالله بن يس الكزولي فاتيا قبيلة لمتونه (اشهر قبائل الملثمين) فنزل جوهر عن جمله واخذ بزمام جمل عبدالله بن يس تعظيماً لحامل شريعة الاسلام . فاقبل الناس على جوهر وسألوه عن الفقيه فقال « هذا حامل سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد جاء يعلمكم ما يلزم في دين الاسلام » فرحبوا بهما وقالوا اذكرلنا شريعة الاسلام فعرّفهم الفقيه عقائد الاسلام وفرائضه فقالوا « اما ما ذكرتَ من الصلاة والزكاة فهو قريب واما قولك من قتل يُقتل ومن سرق يُقطع ومن زنى يُجلد او يُرجم فامر لا نلتزمه . اذهب الى غيرنا » فرحل جوهر والفقيه عنهم . قال ابن الاثير « فنظر اليهما شيخ كبير فقال لا بدّ وان يكون لهذا الجمل في هذه الصحراء شأن يُذكر في العالم » نقول ولعلّ ذلك قيل من بعد ان صار له ذلك الشأن

ثم انتهى جوهر والفقيه الى جدالة قبيلة جوهر فدعاهم الفقيه والقبائل التي تجاورهم الى حكم الشريعة فمنهم من اطاع ومنهم من أعرض . واجتمع المخالفون وتألبوا فقال عبدالله بن يس الفقيه للذين اطاعوا « قد وجب عليكم ان تقاتلوا هؤلاء الذين خالفوا الحق وانكروا شرائع الاسلام واستعدوا لقتالكم فاقيموا لكم راية وقدموا عليكم اميراً » فقال له جوهر : انت الامير فقال : لا انما انا حامل امانة الشريعة ولكن انت الامير فقال جوهر « لو فعلتُ هذا لتسلط قبيلي على الناس ويكون وزر ذلك عليّ » ثم انهما قصدا ابا بكر بن عمر رأس قبيلة لمتونة وعرضا عليه الامارة فاجاب فسماه الفقيه « امير المسلمين » وجمع اليه مَن حسن اسلامه وحثهم على الجهاد وسماهم « المرابطين » ثم استمالوا اليهم نحو الفي رجل من الذين اعرضوا عن الشريعة فجمعوهم في مكان وخندقوا عليهم ثم قتلوهم وبذلك خلصوا من مقاوميهم ودانت لهم اكثر قبائل الصحراء . ولما انفرد ابو بكر وابن يس بالامر دون جوهر داخله الحسد فشرع سراً في افساد الأمر فحكم عليه بالقتل لانه نكث البيعة . ثم ضاقت الصحراء بالملثمين فخرجوا منها فحاربهم اهل السوس الاقصى وهزموهم وقتلوا الفقيه ابن يس . فعاد ابو بكر بن عمر فجمع جيشاً من الفي راكب ورجع اليهم فاجتمع عليه منهم ومن زناته اثنى عشر الف فارس

ومنعوه من العبور الى الاندلس حيث كان يقصد للغزو والجهاد . فدعا ابو بكر قائلاً « اللهمَّ ان كنا على الحق فانصرنا والاَّ فارحنا من هذه الدنيا » ثم قاتلهم وصدق هو واصحابه فهزموهم وغنموا اموالهم واسلابهم . وبعد ذلك حارب ابو بكر سجلماسة واخذها . فدانت لهُ تلك الجهات وكان له ابن عم يُدعى يوسف بن تاشفين من لمتونة ايضاً فاستعمله على سجلماسة ثم عاد الى الصحراء .

***

يوسف بن تاشفين صاحب المغرب وكان يوسف هذا رجلاً حازماً داهية حسن السيرة فساس الناس سياسة استمالتهم اليه ولم يأخذ منهم غير الزكاة . وبعد سنة عاد ابو بكر الى سجلماسة وجهزه بجيش لفتح السوس ففتح على يديه . وفي سنة ٤٦٢ توفي ابو بكر بن عمر بالصحراء فاجمعت قبائل المرابطين على تمليك يوسف بن تاشفين ولقبوه « امير المسلمين » وكانت الدولة في بلاد الغرب لزناتة فحاربهم ابن تاشفين واستخرج البلاد منهم بلداً بلداً بايسر سعي . فملأت سطوته القلوب واحبته رعيته وصلحت احوالهم به . وكانت قبائل المصامدة اشد اهل المغرب فقصد يوسف بن تاشفين جبلهم واختار بقربه بقعة متوسطة في المغرب كالقيروان في افريقيا وبنى فيها مدينة « مراكش » ليتخذها قاعدة لحروبه مع اهل تلك الجبال اخضاعاً لهم وقد جعلها مقرّه . وكان موضع هذه المدينة ملجاءً للصوص ولذلك كان المسافرون يقولون بعضهم لبعض « مراكش » اي مرَّ مسرعاً ومن هنا اشتق اسمها . غير ان الأمن استتب في ما حواليها بعد اهتمام ابن تاشفين بها . فملك ابن تاشفين البلاد من تلمسان الى ساحل البحر المحيط وفيها سبته وطنجه وسلا وغيرها .

فلما ضخم سلطانه الى هذا الحد طمحت نفسه الى الاندلس فانشأ السفن لنقل جنوده اليها . فائتفق ملوك الاندلس (العرب) على مقاومته خوفاً على ممالكهم منه واعترضوه بمراكبهم العديدة وهددوه بموالاة الافرنج عليه اذا اراد بهم شرًّا . ولكن لما قصد الفونس السادس ملك كاستيل وصاحب طليطلة التي جعلها قاعدة بلاد الافرنج محاربة المعتمد بن عباد صاحب قرطبة وطليطلة وغيره من ملوك الاندلس اتفق الاندلسيون كما تقدم على الاستنجاد بيوسف ابن تاشفين لاختيارهم اهون الشرين . فاجابهم ابن تاشفين وعبر الى الاندلس لمحاربة العدو المشترك ونفسه تحدثه ولا شك بارتياد تلك البلاد التي كانت منبع الثروة والخيرات

ولما عبر يوسف ابن تاشفين الى الاندلس بجيوشه عبر معه من الجمال ما اغصَّ الجزيرة وارتفع رغاؤها الى عنان السماء ولم يكن اهل الاندلس رأوا قط جملاً ولذلك كانت خيولهم

تجفل من صورتها وصوتها . فكانت اذا حضرت الجمال الحرب نفرت خيل الافرنج منها .

اما الملك الفونس (اذفونش) فانه لما رأى اجتماع عزائم العرب عليه علم « انه عامٌ نطّاح » فاستنفر الفرنجة للخروج فخرجوا ونزلوا في مكان افيح يسمى الزلاقة بالقرب من بطليوس فلقيهم العرب والمغاربة هناك وجرت بين الفريقين وقعة هائلة كان فيها النصر لجيش يوسف بن تاشفين . ولم يفلت من الافرنج الا الملك وقليلون من جنده . فعاد الامل الى العرب في الاندلس وأمنوا بعض الامن على البلاد التي كانوا يقطنونها

***

ابن تاشفين والاندلس ولما كان المعتمد ابن عباد صاحب قرطبة واشبيلية اكبر ملوك الاندلس يومئذٍ استزار يوسف ابن تاشفين فزاره يوسف في قصره في اشبيلية وشاهد ما فيه من البذخ والترف . وكان معه بعض اصحابه فصاروا ينبهونه الى تامل تلك الحال ويقولون له « ان فائدة الملك قطع العيش فيه بالتنعم واللذة كما هو المعتمد واصحابه » وكان من طبع ابن تاشفين الاقتصاد والتدبير وقد صرف عمره في شظف العيش فاجاب مغريه بهذا الجواب البديع « الذي يلوح لي من امر هذا الرجل (يعني المعتمد) انه مضيع لما في يديه من الملك لان هذه الاموال التي تعينه على هذه الاحوال **لا بد ان يكون لها ارباب لا يمكن ابدًا اخذ هذا القدر منهم على وجه العدل** »

ثم عاد ابن تاشفين الى المغرب وفي نفسه شيء من بلاد الاندلس ومن المعتمد ابن عباد . اما بلاد الاندلس فقد راقه جمالها وغناها واما ابن عباد فقد ساءه منه ارتيابه فيه وعدم الفته اياه لما بين الذوق العربي وذوق البربر من الاختلاف . ولقد قال ابن عباد قبل عبور ابن تاشفين الى الاندلس « ان مجاورة غير الجنس مؤذنة بالبوار » وربما نصح لابن عباد بعض اصحابه كما روى ابن خلكان بان يحذر ابن تاشفين على ملكه ويغتنم هذه الفرصة ويقبض عليه فوصل هذا الخبر الى ابن تاشفين فتغيرّ على حليفه . وبعد ان عاد ابن تاشفين الى بلاده اقام عسكره في الاندلس لمطاردة ملك الافرنج وجنوده فبعد مدة كتب قائد هذا العسكر سير ابن بكر الى اميره ابن تاشفين يقول انه قد افتتح معاقل في الثغور ورتب فيها حراساً ولكن لا يستقيم لهذه الجيوش ان تقيم بالثغور في ضنك العيش تصابح العدوّ وتماسيه ويحظى ملوك الاندلس من الارزاق برغد العيش » فالظاهر ان هذا القول اصاب هوىً في نفس ابن تاشفين لانه رأى ان سيد البلاد وصاحبها هو الذي يحميها لا الذي يأكل خيرها فعهد الى قائده اخضاع ملوك الاندلس مبتدءًا من الثغور وان لا يتعرض لابن

عباد ما لم يستولِ على البلاد كلها

***

نكبة المعتمد وكان المعتمد يومئذٍ في قصره في اشبيلية مشغولاً بنعيم الدنيا . وكان مولعًا بجواريه وحظاياه . ففي ذات يوم قصد ارسالهنّ من قرطبة الى اشبيلية فخرج معهنّ يشيعهنّ فسايرهنّ من اول الليل الى الصبح ثم رجع وانشد في ذلك

سايرتهم والليل اغفل ثوبه حتى تبدى للنواظر معلما
فوقفت ثم مودعًا وتسللت مني يد الاصباح تلك الانجما

وكتب من قصره في قرطبة الى ندماء له اصطبحوا بالزهراء القصر المشهور في ضواحيها يدعوهم الى الاغتباق في قصره

حسد القصرُ فيكم الزهراءَ ولعمري وعمركم ما اساءَ
قد طلعتم بها شموسًا نهارًا فاطلعوا عندنا بدورًا مساءَ

ولكن المعتمد مع اشتغاله بهذه الملاذ فانه كان مشغول الفكر من جهة ملكه هو وابناؤه . قيل ان ابنه الرشيد كان في مجلس انس فأمر ابا بكر الاشبيلي بالغناء فغنى

يادارميـة بالعلياء فالسند اقوتْ وطال عليها سالف الابدِ

فاستاء وتطير وامر بالغناء من ستارته فغنت احدى الجواري

ان شئتَ ان لا ترى صبرًا لمصطبرٍ فانظر الى اي حالٍ اصبح الطللُ

فاشتد استياؤه وتطيره فامر جارية اُخرى بالغناء فغنت

يا لهفَ نفسي على مالٍ افرقه على المقلين من اهل المروءاتِ
ان اعتذاري الى من جاء يسالني ما ليس عنديَ من احدى المصيباتِ

وكان ابن اللبانة الشاعر حاضرًا فقام وارتجل ابياتًا محا بها تطير الامير ووصف ملكه بالقوة والثبات

وكان ذلك في عام ٤٨٣ هـ . ففي العام التالي وصلت جيوش يوسف ابن تاشفين بقيادة سير ابن ابي بكر الى اشبيلية قاعدة ملك المعتمد وحصرته فيها . قال ابن خلكان « وظهر من مصابرة المعتمد (في الحصار) وشدة بأسه وترامیه على الموت بنفسه ما لم يُسمع بمثله . والناس بالبلد قد استولى عليهم الفزع وخامرهم الجزع . يقطعون سبلها سياحة . ويخوضون نهرها سباحة . ويترامون من شرفات الاسوار . فلما كان يوم الاحد لعشرين من رجب سنة اربع وثمانين واربعمائة هاجم عسكر الامير يوسف البلد وشنوا فيها الغارات ولم

يتركوا لاحد شيئًا . وخرج الناس من منازلهم يستترون عوراتهم بايديهم » وكان الافرنج في هذه الحرب يعاونون العرب على جيش ابن تاشفين لخوفهم منه

اما المعتمد فانهم قيدوه وجعلوه مع جميع اهله في سفينة وارسلوهم الى المغرب . وفي ذلك قال ابن خاقان في قلائد العقيان « وحملتهم الجواري المنشئات . وضمتهم كانهم اموات . بعد ما ضاق عنهم القصر . وراق منهم العصر . والناس حشدوا بضفتي الوادي . يبكون بدموع الغوادي » وقال ابن اللبانة في ذلك

تبكي السماء بدمعٍ رائحٍ غادي ... على البهاليل من ابناء عبادِ
على الجبال التي هدت قواعدها ... وكانت الارض منها تحت اوتادِ
ياضيف اقفر بيتُ المكرمات فخذ ... في ضم رحلك واجمع فضلة الزادِ

وهي قصيدة طويلة . وقال ابو محمد عبد الجبار بن حمديس الصقلي من قصيدة طويلة ايضًا .

جرى لك جد بالكرام عثورُ ... وجار زمانٌ كنتَ منه تجيرُ
ولما رحلتم بالندى في اكفكم ... وقلقل رضوى منكم وثبيرُ
رفعتُ لساني بالقيامة قد دنتْ ... فهذي الجبال الراسيات تسيرُ

***

شعره وحاله في نكبته وقد ارسل ابن تاشفين المعتمد واهله الى « اغمات » وهي قرية صغيرة بالقرب من مدينة مراكش بينهما مسافة يوم مشيًا وسجنهم فيها واساء في معاملتهم . قال ابن الاثير « فابان بهذا الفعل عن صغر نفس ولؤم قدرة » وصار فضلاء البلاد يراسلون المعتمد بالنظم والنثر وهو في سجنه . اما اهل المعتمد فانهم سجنوا مثله ايضًا وكان بناته يغزلن للناس باجرة لينفقنها عليهم . وفي يوم عيد دخل على المعتمد في سجنه بعض بنيه « وفيهم بناته وعليهنّ اطمار كأنها كسوف وهنّ اقمار واقدامهنّ حافية وآثار نعمتهنّ عافية » كما روى ابو الفداء . فقال المعتمد فيهنّ .

فيما مضى كنتَ بالاعياد مسرورا ... فجاءك العيد في اغمات مأسورا
ترى بناتك في الاطمار جائعة ... يغزلنَ للناس ما يملكن قطميرا
يطا ن في الطين والاقدام حافيةً ... كأنها لم تطأ مسكًا وكافورا
لاخدَّ الا تشكى الجدب ظاهره ... وليس الا مع الانفاس ممطورا
قد كان دهرك ان تأمره ممتثلاً ... فردَّك الدهر منهيًا ومأمورا

من باتَ بعدكَ في ملك يسرُّ بهِ فانما بات بالاحلام مغرورا

وتألم المعتمد يوماً من قيده وثقله فانشد

تبدلت من ظل عز البنود بذلِّ الحديد وثقل القيود
وكان حديدي سناناً ذليقاً وعضباً رقيقاً صقيل الحديد
وقد صار ذاك وذا ادهماً يعضُّ بساقيَ عضَّ الاسود

ودخل عليه يوماً ولده ابو الهاشم فلما راى المعتمد والقيود تعض ساقيه « بعدما عبدنفسه فوق منبر وسرير . وفي وسط جنة وحرير . تحفق عليه الالوية . وتشرق منه الانديه » بكى وقال

قيدي اما تعلمني مسلماً ابيت ان تشفق او ترحما
دمي شرابٌ لك واللحم قد اكلته لا تهشم الاعظما
يبصرني فيك ابو هاشمٍ فينثني والقلب قد هشما
ارحم طفيلاً ظائشاً لبه لم يخشَ ان يأتيك مسترحما
وارحم اُخيّات له مثله جرعتهنَّ السمَّ والعلقما
منهنَّ من يفهم شيئاً فقد خفنا عليه للبكاء العمى
والغير لا يفهم شيئاً فما يفتح الاَّ لرضاعٍ فما

واجتمع عليه بعض الشعراء والحوا في السوءال فانشد

سألوا اليسير من الاسير وانه بسوءالهم لأحق منهم فاعجبِ
لولا الحياء وعزة نخمية طيَّ الحشا لحكامهُ في المطلبِ

وللمعتمد اشعار كثيرة في نكبته ولابن اللبانة عدة قصائد فيه وفي البكاء على ايامه . منها ديوان له سماه « نظم السلوك في وعظ الملوك » وقد وفد على المعتمد في اغمات وفادة وفاءٍ لا وفادة استجداءٍ . وله فيه من قصيدة طويلة

فجعتَ منها باخوان ذوي ثقة فاتوا وللدهر في الاخوان آفات
واغتضتَ في آخر الصحراء طائفة لغاتهم في جميع الكتب ملغاةُ

يعني البربر اي ابن تاشفين وعسكره . وكانت وفاة المعتمد في سجنه في سنة ٤٨٨ هـ « فنودي في جنازته بالصلاة على الغريب بعد عظم سلطانه وجلالة شانه » وقد رثاه الشعراء عند قبره . منهم شاعره المختص به ابو بحر عبد الصمد فقد انشد على قبره قصيدة اولها

ملكَ الملوك اسامع فاناديـ ام قد عدتكَ عن السماع عوادي

لما نقلتَ عن القصور ولم تكن فيها كما قد كنتَ في الاعيادِ
اقبلتُ في هذا الثرى لك خاضعاً وجعلتُ قبرك موضع الانشاد

ولما فرغ من انشادها قبّل الثرى وعفر خده فابكى كل من حضر

قال ابن خلكان : ورأى ابن اللبانة حفيداً للمعتمد اتخذ الصياغة صناعة وهو غلام وسيم وكان يُلقب في ايام دولتهم « نفخ الدولة » فنظر اليه وهو ينفخ الفحم بقصبة الصائغ فقال من قصيدة طويلة

ياصائغاً كانت العليا تُصاغ له حليًا وكان عليه الحلي منتظما
للنفخ في الصور هول ما حكاه سوى اني رأيتكَ فيه تنفخ الفحما
وددتُ اذ نظرت عيني عليك به لو انَّ عيني تشكو قبل ذاك عمى

***

دولة الموحدين تلك قصة المعتمد بن عباد اشهر ملوك الاندلس في زمنه . ولا تشبهها في التاريخ العربي قصة غير قصة البرامكة ونكبتهم في المشرق . على ان العدالة الابدية التي تدبر شؤون هذه الحياة بنواميسها الازلية الثابتة قد سلطت على ذرية يوسف ابن تاشفين الذي فعل ببني عباد هذه الفعلة الشنعاء من فعل بها مثلها . فاقامت دولة « الموحدين » في المغرب على دولة « المرابطين » كما قامت دولة المرابطين على ملوك الاندلس ولبيان ذلك نقول باختصار

تقدم في الصفحة ٨ ان قبائل المصامدة في جبال اغمات كانت اشد القبائل بأساً وان يوسف ابن تاشفين بنى مراكش واتخذها مقاماً له لاخضاع تلك القبائل . ففي سنة ٥١٤ للهجرة اي بعد انقضاء ٣٦ عاماً على وفاة المعتمد بن عباد ظهر من المصامدة رجل يدعى عبدالله بن تومرت وتُعرف قبيلته بقبيلة هرغه وهي قبيلة نزلت في تلك البلاد لما فتحها المسلمون مع موسى بن نصير . وكان هذا الرجل عالماً بالشريعة فسافر الى بلاد الشرق وحجّ ثم عاد الى المغرب عن طريق الاسكندرية . فعند عودته صار يامر بالمعروف وينهى عن المنكر فاجتمع الناس عليه واجلّوه ولقبه في ملالة رجل يُدعى عبد المؤمن بن علي فاتفق معه . ولما قدم الى مراكش عاصمة يوسف ابن تاشفين وجد فيها من المنكرات اكثر مما وجده في طريقه فزاد في امره بالمعروف . واتفق انه رأى في ذات يوم اخت الامير يوسف في موكبها ومعها من الجواري الحسان عدة وهن مسفرات (**لان العادة كانت في دولة الملثمين ان يسفر نساؤهم ويتاثم رجالهم**) فهجم على الموكب مع اصحابه وامرهن بستر وجوههن وضرب دوابهن

فسقطت اخت الامير عن دابتها . فاحضره الامير يوسف بين يديه وامر الفقهاء ان يناظروه فقال له احدهم ان هذا الرجل لا يريد الامر بالمعروف والنهي عن المنكر وانما يريد اثارة فتنة ليغلب على بعض النواحي . فاخرجوه من مراكش فذهب الى قبائل المصامده وصار يعظهم ويذكرهم بما حدث من الظلم والفساد وانه لا يجب طاعة دولة من هذه الدول لاتباعهم الباطل بل الواجب قتالهم وانه لا بدَّ من ظهور المهدي الذي بُشر به . فقال له بعض السامعين وفيهم عبد المؤمن انت المهدي . فبايعوه وسماهم المهدي « موحدين » فلما بلغ ذلك الى الامير يوسف ارسل عليهم جيشاً فهزموه وبذلك قويت قلوبهم . قال ابن الاثير : وكان ليوسف بن تاشفين عدة مماليك من الروم والفرنج يغلب على الوانهم الشقرة وكان في كل عام يخرجون مرة الى جبال المصامدة ليجبوا الضرائب منها فكانوا يطردون الرجال وينامون في المنازل . فلما جاء المهدي الجديد سأل قومه مالي اراكم سمر الالوان واري اولادكم شقراً زرقاً فاخبروه ذلك الخبر . فقبح الصبر على هذا وامرهم بقتل اولئك المماليك حين قدومهم والاستقلال بالجبل ففعلوا وازدادوا جرأة على جرأة

ثم استفحل امر هذه القبائل وحصروا مراكش وصاحبها علي بن يوسف بن تاشفين لان يوسف كان قد توفي فعادوا عنها بالخيبة . وفي اثناء ذلك توفي المهدي وسلم الامر الى عبد المؤمن واوصى اصحابه بطاعته . ففتح عبد المؤمن البلاد واخذ مراكش كرسي دولة المرابطين . وكان فيها جيش من الافرنج استنجد به المرابطون كما روى ابن الاثير . وكان صاحب مراكش اسحق بن علي بن يوسف بن تاشفين وهو فتى فلما وصل الموحدون الى القصر واخرجوا من فيه للقتل صار اسحق الفتى يرتعد رغبةً في البقاء ويدعو لعبد المؤمن ويبكي . فقام اليه الامير سير بن الحاج وكان الى جانبه مكتوفاً فبصق في وجهه وقال : تبكي على ابيك وامك اصبر صبر الرجال فهذا رجل لا يخاف الله ولا يدين بدين . فقام اليه الموحدون بالخشب فقتلوه . وقُدم اسحق على صغر سنه فضربت عنقه سنة ٥٤٢ وهو آخر ملوك المرابطين وبه انقرضت دولتهم . وكانت مدة ملكهم سبعين سنة وولي منهم اربعة : يوسف وعلي وتاشفين واسحق . وكما اسقط الموحدون المرابطين في افريقيا اسقطوهم في الاندلس وبذلك انتقموا لملوكها الغابرين

***

فيرى القارئ فيما مرَّ في هذه الترجمة تاريخ ثلاث دول مهمة . (الاولى) دولة بني عباد التي قامت في اشبيلية وقرطبة وما جاورهما . (والثانية) دولة ابن تاشفين (المرابطين)